الرقيب

الاسم هو(الرقيب) ، فالرقيب اسمٌ من أسماء الله الحُسنى . وإنَّ المؤمن إذا آمن بهذا الاسم ، انعكس هذا الإيمان على سلوكه انعكاساً واضحاً صارخاً ؛ فأنت إذا شعَرت أنك مُراقَب فلا بُدَّ من أن تنضبط ، فشعور الإنسان بأنه مُراقَب ، ولو من جهة أرضية ، ولو من إنسان من بني جلدته لكنه أقوى منه ، إذا كنتَ مراقَباً ، فلا بد من أن تنضبط ؛ فَكيف إذا أيقنت أن الله جل جلاله هو الرقيب! قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

أيها القارىء الكريم ، أحياناً تكون العَقَبة عقبَة معرفةٍ ، لأن فطرة الإنسان تُعينه إذا عرف ، فَحُب السلامة ، وحُب الفوزِ والكسبِ في الإنسان ، كافِيان لِحَمْلِهِ على طاعة الله فيما لو أيقن أن الله رقيبٌ عليه ، فالمراقبة حالٌ ذكَره العلماء كثيراً ؛ هذا الحال يُشعِرك أن الله معك دائماً . ورد عن رسول الله ﷺ : « **أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان** » .

قبل أن نتابع الحديث عن اسم الرقيب أريد أن أضع بين أيدي القراء الكرام مثلاً يوضح حقيقة هذه الأسماء ؛ فأنت لو التقيت في

بيت صديق لك مع رجلٍ لا تعرفه تسأله : مَن الأخ الكريم ؟ يقول لك : فلان بن فلان ، بِرَبِّك ؛ إن يذكر لك صديقك اسم هذا الرجل فهل يكفي لكي تعرفه ؟ إنك سألت عنه كي تعرف كل شيء ، قال لك اسمه . تسأله إلى أيِّ مستوى دراسي وصلت ؟ وكذلك تحب أن تعرف شيئاً عن ثقافته ، أو عن اختصاصه ، أو عن سِنِّه ، أو عملِه ، وهل هو متزوج ؟ وكم ولد له ؟ وأين يسكن ؟ إلى هذا الحد فقد توفرت لك معرفته شيئاً ما ؟ لكن إذا قلت لك : إن الله ـ جل جلاله ـ خالق السموات والأرض ، فهذا لا يكفي ؛ فأنت تحب أن نعرف أسماءه وصفاته ، فما من موضوعٍ يعلو على موضوع أسماء الله الحسنى ، إذْ رأس الدين معرفة الله عز وجل ولكن كيف تعرفه ؟ هل تردد اسمه فقط ؟ لا ، بل لا بد من أن تتعرف إلى أسمائه وصفاته الحسنى ، فَلِذلك مشروعية هذا البحث أنه لا يكفي أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض ، فإن هذه الحقيقة يعرفها كل الناس حتى الكفار ، بل عُبّاد الأصنام بل حتى المجوس قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

فالمشكلة ليست أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض ، وإنما المشكلة أن تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى ؛ فهذه هي مشروعية هذا البحث الذي يُعد في الدعوة إلى الله كالرأس من الجسد .

أولاً : الرقيب في اللغة بمعنى المُنتظِر ، قال تعالى :

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] .

﴿فارتقبوا﴾ أي انتظروا فالرقيب هو المُنتظر . ورقيب القوم هو الحارس الذي يُشرف على مراقبة العدو . ورقيب الجيش : طليعته . والرقيب هو الله الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

إذا أيْقنت أن الله يعلم ، حُلَّت كل مشكلتك ؛ ألم يقل الله عز وجل :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

فالله إختار من بين أسمائه اسمين فقال : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فإذا علمت أن الله يعلم ، فَبدافع فِطرتك ، وبدافع حُبك لذاتك ، وبِدافع رغبتك في السلامة والكسب والتفوُّق ، تستقيم على أمره .

زرتُ مرةً مَحَلاً تجارياً كي أشتري بعض الحاجات فلم أجد حاجتي ، فقال لي صاحب المحل : حاجتك موجودة ولكن بالمستودع ، فذهبت معه إلى المستودع وكان في الطابق الرابع ، فوجدت محاسِباً يجلس إلى طاولة وأمامه آلة تصوير ، تذكرتُ ما رأيته في محل ذاك الشخص فإنني رأيت شخصاً يكتب ، عندها عرفت أن هذا الشخص موظف عند صاحب هذا المحل وقد وضع صاحب المحل جهاز مراقبة عليه ، فهذا العامل لا يستطيع أن يتحرك ولا أن يأكل ولا أن يتمطى لأنه مراقب من طرف هذا الشخص ، كما أن مديرية المرور تكتب : الطريق مراقب ، كنت أزور بعض البلاد ؛

فعلمت أن مخالفة المرور فيها بِخمسمئةِ درهم بِمعدل سبعة آلاف ليرة سورية ، فالاهتمام بتحديد سرعة السيارات بالغ جداً لأن قيمة المخالفة سبعة آلاف ليرة تقريباً ، فلو جاوز العدّاد التسعين لصارت المخالفة بسبعة آلاف ، فالمراقبة هي التي تجعل الإنسان يقظاً وعلى حذر .

في الإدارات الحديثة صار البناءُ كله وحدة صوتية ومرئية ، فَبِإمكان المدير أن يرى كل الموظفين ، دخلت بعض المعامل السورية فوجدت كل الغرف مفصول بينها بألوح زجاج فقط ، فالمدير العام يرى كل الموظفين ؛ ولكن المراقبة من الإنسان شيء والمراقبة من الواحد الديان شيء آخر . لذلك بعض علماء القلوب أشاروا إلى حال المراقبة ، المؤمن الراقي يشعر دائماً أن الله يُراقبه ، وأنه تحت المراقبة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] .

فالرقيب هو المُنتظِر ؛ والرقيب هو الحارس ؛ ورقيب الجيش هو طليعته ؛ والرقيب هو الله تعالى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء . قال أبو بكر : « **أُرقبوا محمداً ﷺ في آل بيته** » [رواه البخاري] أيْ راقبوا وانتبهوا أن تُؤذوه في آل بيته واحفظوه فيهم ؛ والرقيب كذلك هو الخَلَف يُقال : نِعم الرقيب أنت لأبيك ، هذه كلها معاني الرقيب ؛ والترقّب أي الانتظار ، وارتَقَبه : رَصَده ، والرقوب الدوام على وجه الحفظ يُقال : أرقَبت الشيء ، أرقبه : إذا راعيته وحفِظته ، والرقيب من الناس الموكل بحِفظ المُتَرَقب ، ويقال للملَك الذي يكتب الأعمال ويحفظ الأقوال هو رقيب ، وفي القرآن الكريم :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

والرقيب العليم ، وراقَبْتَ الله إذا علِمت أنه مُطلّع عليك فَراعيْتَ حقه ، هذا كل ما ورد في اللغة عن معنى الرقيب ولا بأس من تكرار ذلك لمزيد الفائدة ، فهو الذي ينتظر ، والحارس ، وطليعة القوم ، والخَلَف ، والمنتظر ، والرَّاصد ، والراعي ، والحافظ ؛ الله جل جلاله هو الرقيب ؛ والمَلَك المُوَكل بِكتابة الأعمال ، وحِفظ الأقوال هو الرقيب .

إذا قلنا : الله هو الرقيب ؛ فماذا تعني هذه الجملة ؟ أي أن الله هو الذي يعلم أحوال العِباد ويعُدّ أنفاسهم . والله الذي لا إله إلا هو ، وأنت مستلقٍ على فِراشك لو خَطر لك خاطر أنْ غداً سَأفعل كذا ، يجب أن تؤمن وأن تعلم وأن تعتقد اِعتقاداً جازماً قطعيّاً ، أن هذا الخاطر اِطَّلع الله عليه ، ولا يستطيع من العباد أياً كان أن يفعل ذلك ، إذْ لو أنك رأيت شخصاً مستلقِياً على فراشه لا يمكنك أن تقرأ أفكاره ، فهذا مستحيل . الله ستر لك أفكارك وأحوالك عن الناس . والناس لهم الظاهر ، لكن الله هو الخبير بالسرائر ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

[ق : ١٦] .

مرةً ثانية أقول : إن هذا الاسم من أقرب الأسماء إليك ؛ إنك إن اعتقدت أنّ الله هو الرقيب فمن اللوازم القطعية للإيمان بهذا الاسم الاستقامة على أمره ؛ ومتى اِستقمت على أمره ؛ انتهى كل شيء لقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

فَيُمكنك عند إرادة حقيقة هذا الاسم أن يكون سبب سعادتك الأبدية ، آمنت أنه يراقبك ، فاستحييت منه ، ولَزِمت أمره ؛ فَسَعِدت في الدنيا والآخرة . فقد يكون اسم الرقيب وحده وأثره الإيجابي فيك سبب سعادة الدارين ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، فالمؤمن في بيته مُراقَب ، وفي عمله مُراقَب ، وهو يعالج المريض مُراقَب ، وهو يَرفع مذكرة للقاضي مُراقَب ؛ وكلما اقترب من الله ؛ شَعَر بالعِتاب أحياناً ؛ فمثلاً إن كنت محامياً أتقنت عملك ودافعْت عن هذا المُوكِّل دِفاعاً قوياً ، وراجَعت القوانين كلها ؛ وإن كنت طبيباً عالجتَ هذا المريض معالجة مُتقنة ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، فإنْ تكلمت في موضوع كلاماً تسأل : هَل عرفت أبعاده ؟ فالإنسان كلما اِرتقى يَنشأ في نفسه شعور دقيق . واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان عرف الله حق المعرفة ، لَحاسَب نفسه حساباً عسيراً لأنه تعالى مُطَّلِع عليه .

أذكر القارىء بهذا الكلام ولو كان موجزاً : إذا كان طبق فاكهة موضوعاً أمام جماعة من الناس ، أليس من تمام المراقبة أن تؤثِر أخاك وتجعل الحبَّة الكبيرة له ؟ لأنك تحت مراقبته في تفكيرك وحركتك ، لكنَّ الله تعالى لطيف في رقابته ومعاملتك ، أحياناً تكون مع شخصٍ فَتَتَضايَق نفسك منه ، لكن الله معك دائماً ، ودون أن يُزعِجك ، وهو معك بِلُطْفه فَمِن أسمائه اللطيف ، فهو معك في بيتك ، وعملك ، وسفرك ، وحضرك ، وفي خلوتك ، وجلوتك ، ومع زوجتك ، وأولادك ، وعند كل كلام تقوله معك يراقبك لكنه لطيف .

الرقيب في حق الله ؛ هو الذي يعلم أحوال الناس ويعد أنفاسهم ؛ وقيل : الحفيظ الذي لا يغفُل والحاضر الذي لا يغيب ؛ قد تتعرف

بعض الأشخاص الأقوياء فَتكون لديك أرقام هواتفهم ، وربما تقع في وقت حرِجٍ فإذا اتصلت بِأحدهم فيقال لك : سافرفيسقط في يدك ، وذاك هاتفه مقطوع ، وأنت في أشد الحاجة إليه فتأكل أصابعك لسوء حظك لكنك لو اعتمدت على الله فهو دائماً معك في السرّاء والضرّاء ، قل : يا رب يقلْ لك : لبَّيْك عبدي . لن تحتاج بهذا وصْلاً أو قَسَماً أو مذكرة ولا شهادة ، قال تعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

اعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ هذا مقام الإحسان . فاسم الرقيب يرفعك إلى مقام الإحسان ، اعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والإنسان يستحي ؛ في كل أسرة من أُسَرِنا هناك كبير القوم متقدم في السن ومثقف أحياناً ، ذو وجاهة ومعتدل وحليم ، لو أن هذا الإنسان زارك في العيد ، كيف تستقبله أبالقميص الداخلي ؟ هناك أشخاص لا يستقبلون الضيوف إلا باللِباس الرسمي ، يخجل حتى بِثياب البيت أن يستقبله ، كيف تحدثه وكيف تجلس معه ؟ إنه من عِلْية القوم ، تجد أنك تراقب نفسك بالكلام ؛ وتنتقي أفضل الثياب ، وتجلس جلسة مؤدَّبة فيها توقير ، إذا كان كل هذا مع الإنسان فَكيف مع الواحد الديان ؟ فكلما ارتقى مقام الإنسان دخل في حال المراقبة مع الله عز وجل ؛ فهو الحفيظ الذي لا يغفل والحاضر الذي لا يغيب ، العليم الذي لا يَعْزُبُ عنه شيء من أحوال خلقه ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

الإنسان مكشوف ؛ إذْ لا شيء يمكنك أن تخفِيَه عن الله عز وجل ،

أما عن البشر فأنت تخفي عنهم ألف شيءٍ وشيء ، تخفي عنهم ألف شعور ، وألف فكرة ، وألف قضية ، وألف سر ، تبقى صامتاً ولا يعلم أحدٌ شيئاً عنك أحياناً ، لكن تكلُّمك وصمتك عند الله سواء ، وبَوْحُك وكِتمانك عند الله سيان ، إعلانك وإخفاؤك عند الله سواء لأنه رقيب .

وقيل : الرقيب ؛ هو الذي يرى أحوال العباد ويعلم أقوالهم ؛ وقيل : الذي يراقب عباده ، ويُحصي أعمالهم ، ويحيط بِمَكنونات سرائرهم ، ولا يغيب عنه شيء . هذا من معاني اسم الرقيب ، والإنسان إذا تحقق من اسم الرقيب ، كان في حالٍ آخر ، يستحي من الله عز وجل ، النبي عليه الصلاة والسلام خرج فإذا هو بأجير يغتسل في البراز ، فقال له : لا أراك تستحي من ربك خذ أَجَارتك لا حاجة لنا بك .

ومن ثَمَّ فاسم الرقيب ذكره الله في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن : ففي فاتحة سورة النساء قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا الآيتان التاليتان لَكَفَتا .

رجل جاء ليتعلم من النبي ﷺ فانتهى إلى قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فقال : يكفيني هذا وانصرف ، فقال النبي ﷺ : « انصرف الرجل وهو فقيه »[1] .

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان =

فوالذي نفسي بيده أكاد أقول : إن هذه الآية وحدها تجعل الإنسان فقيهاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ هل تستطيع أن تكذب مع هذه الآية ؟ وهل تستطيع أن تُدلِّس ؟ وأن تغُشّ ؟ وأن تحتال ؟ وأن توهِم ؟ وهل تستطيع إيذاء الخلق ؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، إذا كنت مراقباً من قِبَل مخلوق تجد أنك تتجنب كل ما يؤدي للهلاك فَكَيف إذا كنت مراقباً من قِبَل الخالق ؟ .

مقام المراقبة قد يصل بك إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة . والآية الثانية ذكرت في سورة المائدة على لِسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة : ١١٧] .

فهذه الآية الثانية ؛ والآية الثالثة : في سورة الأحزاب قال تعالى :

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

تُروى قصة مشهورة ذكرها الإمام الرازي : أن أحد الشيوخ كان له جمْع من التلاميذ ، وكان قد خصَّ واحداً منهم بالعناية الزائدة فَسَأله بقيةُ التلاميذ عن سبب عنايته الزائدة به ، وذلك لشدة غيرتهم من هذا

= والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يارسول الله . . . الحديث » وفيه : « فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل أفلح الرويجل » ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال : « حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها » .

التلميذ الصغير ، وقالوا له : لماذا تخصه بهذه العناية ؟ فقال : سَأبيِّن لكم ذلك ؟ أعطى لِكل واحدٍ منهم طائراً وقال له : اذبح هذا الطائر حيث لا يراك أحد ؛ فمَضى كل واحدٍ منهم إلى جهةٍ ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر ، ما عدا ذلك التلميذ الصغير ، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده ، وقال : أنت يا سيدي أمرتني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد ، ولم أَجِد موضِعاً لا يراني الله فيه ، فالتفت الشيخ إلى بقية التلاميذ وقال : مِن أجل هذا خصصته بِمزيدٍ من العناية .

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تخشى من عُتْبنا يوم جمْعِنا
أما آن أن تُقلِعْ عن الذنب راجِعاً إلينا وتنظر ما به جاء وَعْدنا
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي أيا عبد سوءٍ أما قرأت كتابنا

فالمؤمن الصادق ؛ يرى أن الله معه ، ويُراقبه ، ويُحاسِبه فيَسْتحي منه ، فالمحبون لله عز وجل لهم أحوال مع الله لا تُوصف ، مناجاتهم له وتأدُّبهم معه فهناك من يتزيَّن قبل أن يُصلي لأنه سَيَقف بين يدي الله عز وجل ، أرى في بعض الأحيان أشخاصاً يصلون بالقميص الداخلي فهؤلاء لا يستحيون من الله حق الحياء ؛ يستحي أن يقابل إنساناً بِقميص داخلي فَكَيف يقابل الله عز وجل بذاك القميص ؟ فالأكمل أن ترتدي عباءة أو ثوباً فأنت بين يدي الله عز وجل فالعلماء من شأنهم أنهم كانوا يتزينون ويُرجِّلون شعورهم قبل أن يصلوا لأنهم سَيَقفون بين يدي الله عز وجل ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ولدينا دليل قوي ؛ قال تعالى :

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] .

أنا لا أقول هذا انتقاداً لأحد ، لكنك تجد بعض الناس يأتي إلى المسجد بِأَقَلّ ثياب عنده ، في حين عند أقل حفلة تجده يرتدي أجمل الثياب ، المسجد بيت الله ويوم الجمعة عيد وأنت ضيفه ، ومن السنة الاهتمام بهذا اليوم ، بهذا العيد .

يُروى أن عبد الله بن عمر مرَّ بِغلام يرعى غنماً فأشار لإحدى الشياه وقال : بِعني هذه الشاة يا غلام ، فأجاب الغلام : إنها ليست لي . فقال ابن عمر : قل لصاحب الغنم إن الذئب أكل واحدةً منها ، فقال الغلام : فأين الله ؟ أقول تعليقاً على هذه القصة : إن هذا الغلام الراعي وضع يده على جوْهر الدين ، وأدرك بحسه جوهر الدين ، ولو أن ثقافته محدودة ، فهذا راعٍ وقد تجد إنساناً عنده مكتبة من أربعة جدران ، بحيث تعجب لحجمها وتقول : هذا عالم كبير . فوالله لو أكل دِرهماً حراماً فلا قيمة لكل هذا العلم ؛ ولكن هذا البدوي الراعي قال : أين الله ؟ نحن بِحاجة في هذه الأيام إلى أشخاص كهذا الراعي ، بِحاجة إلى وَرَع ، وإلى مسلم يقيم الإسلام حقيقةً ؛ إلى بيت مسلم ، وزوج مسلم ، وزوجة مسلمة ، وأولاد مسلمين ، وإلى صدق ، وأمانة ، وإخلاص دون غش ، ولا كذب ، ولا تدليس ، هذا النموذج وهو ساكت يُعَدُّ أكبر داعية والذي يصيح في الناس صباحاً ومساءً يا أيها الناس اتقوا ربكم ؛ وهولا يتقي ربه ؛فهذا أكبر منفِّر ؛ فالإنسان المستقيم والملتزم والتقي ، ولو كان ساكتاً ، هو أكبر داعية ؛ والفصيح المتكلّم ، والمتحدث اللَّبِق ؛ والخطيب المصقع ؛ إن لم يكن ورِعاً ، فهو أكبر منفِّر ؛ فالقضية عند الله في الصدق ، والإخلاص ، والتطبيق ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، هل يمكن لمؤمن يعمل خبازاً أن يدخل إلى دورة المياه ولا يُغسِّل يديه ؟ المؤمن

لا يفعل هذا لأن العجين سيُصبح خطراً على الناس ، الأمر الذي جعل المؤمن يتصرف هكذا ، هو الوازع الداخلي ، إن الله كان عليكم رقيباً .

أذكر أنني ألقيت يومًا في المسجد درساً حول الأمانة وقلت : ليس الأمين الذي يؤدي ما عليه إذا كان هناك إيصال ، أو سند ، أو شهود ، أو حساب ثابت ، فهذا سلوك مدني ، لأنه إذا لم يؤدِّ فالطرف الآخر أقوى منه لوجود السند ، ودعوى ، وقضاء ، وتشهير ، أما الأمين عند الله ؛ فهو الذي يؤدي ما عليه من دون أن يكون مُداناً في الأرض ؛ ولقد جاءتني ورقة وأنا ما زلت في المسجد قال فيها صاحبها : والله يا أستاذ أديت عشرين مليون ليرة لِورثَةٍ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً إذ مات أبوهم والمبلغ عندي ، لأن الله رقيبٌ عليه ؛ هذا هوالمؤمن ؛ مبلغ ضخم ، وهناك آباء كثيرون أموالهم في مكان لا يُعلِمون بها أولادهم ولا أزواجهم ؛ فإذا مات فجأةً مات معه السِّر ؛ هناك أُناس كثيرون يُعانون من هذا ويقولون : مات والدنا ولا نعلم عن أمواله شيئاً ؛ فالذين لديهم أموال غيرهم إذا كانوا من الذين فقهوا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ سيأتون إلى الورثة بالمال ويقولون هذا مال أبيكم .

قال : والله يا أستاذ أدَّيت عشرين مليون ليرة للورثةٍ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً ؛ هذا هو الإيمان ، الإيمان يصنع المعجزات ، لو أننا شعرنا أن الله رقيبٌ علينا لاستقامت حالُنا جميعاً ؛ هل يستطيع سمّان مؤمن إذا وقعت فأرة في صفيحة زيت أن يبيع الصفيحة ؟ لا يستطيع! هل تستطيع أن تُخفيَ عَيْب بضاعتك ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، هل يمكن أنْ تضع مادةً مُسرطنة لِغذاء حتى ترفع

ثمنه ؟ لا تستطيع ، وهل تستطيع أن تضع هرمونات لِنَبْتة كي تكبر بسرعة حتى ويكون ثمنها مضاعفاً ؟ هذه مادة مسرطنة لا يمكن اِستعمالها إلا تهريباً ؛ لو آمنا بهذا الاسم لأُلغِيَ الغش من حياتنا جميعاً ؛ وهل يستطيع المحامي أن يقدِّم مذكرة للقاضي وهو يعلم أن مُوَكِّله كاذب ؟ لا يستطيع ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، وهل يستطيع أن يرى الطبيب من المرأة موضعاً غير الموضع الذي تتألم منه المريضة ؟ إن الله كان عليكم رقيبًا ، لقد رأيت أطباء ملتزمين يقومون بِوضع رداء فيه فتحة صغيرة على المريض كي يُشَخِّصوا موضع الألم فقط ، هل تستطيع إن كنت مؤمنًا وكنت في بيتك وحيداً ، وخرجت جارتك تنشر غسيلها بالشرفة المقابلة لك ، وهي بثياب متبذلة ، وهي في النور وأنت في الظل ولا يراك أحد ؛ هل تستطيع أن تنظر وأنت تتذكر قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

أخ يحضر مجالسنا وهو يعمل في دائرة ؛ واسمحوا لي أن أذكر قِصَّته ، كان يحضر مجلس علم قصير في كثير من أيام العمل ، وفي آخر الشهر طلب إجازة لمدة ستة أيام من رئيسه وقال : لقد استهلكت هذه الإجازة فقال : كيف ؟ قال : لأنني كنت أحضر في بعض الأيام درساً قصيراً عقب صلاة الظهر فَجَمعت هذه الساعات فإذا هي بِمُعدَّل ستة أيام ؛ فوقع رئيسه في دهشة وإعجاب فاندهش من هذا النموذج من الشباب ثم قال لي والله يا أُستاذ : لما قَدِمت لحضور الدرس القادم وجدت رئيسي في العمل حاضراً درس المسجد . هذه هي التربية الراقية ؛ تقديم طلب إجازة جعل المدير العام يحضر مجلس علم ، هكذا الدين كلما ازددت مراقبة لله كنت أكثر ورعاً ، وأقول لكم مرة ثانية : يمكنك أن تكون أكبر داعية في الأرض وأنت

ساكت ؛ وذلك بِأمانتك ؛ وإستقامتك وإتقان عملك .

هناك أطباء من إخواننا أجْروا عمليات معقدة جداً ، وبعض العمليات لهم فيها أجر كبير وبعضها الآخر لا يتقاضون عليها أجراً ، وقِسم بِثمن باهظ ، أسمع عنهم أن عِنايتهم بالفقراء لا تقِل فتيلاً ولا قطميراً عن عنايتهم بالذي سَيَدفع مئتي ألف أجرَ العملية ، إذًا بعض العمليات مجانية وذلك لِفقر أصحابها ، العِناية واحدة والإتقان واحد ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، وهل يمكن لِمدرس مؤمن أن يهمل التلاميذ من أجل ضآلة الراتب ؟ لا يمكن ، لذلك هذا الاسم يمكن أن يُطبّق في الكثير من الحالات ، إذا آمنتم أن الله رقيب فسَيَنعدم الغش والكذب .

العلماء يرون أن المراقبة حال يصيّر العبد فيه ذاكرًا الله بِقلبه ؛ إن شُغل لسانُه ، لأن الله مُطلّعٌ عليه دائماً ؛ وشعور العبد أن الله مُطلّعٌ عليه سموٌّ وارتقاء إلى الله ؛ فلتكن أيها القارىء الكريم من أهل المراقبة .

سئل بعض القوم بمَ يستعين الرجل على غض بصره عن المحظورات ؟ فبالطريق بعض النساء يُبرزن أحسن ما في أجسامهن وتراهنّ عاريات من الطراز الأول ، فكيف تغض بصرك ؟ قال : لِعلْمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره ؛ علمُك أن الله يراقبك هذا أسبق من نظرك إلى الحرام ؛ فبِهذا تغض بصرك وتستحي من الله ، وكثير من صالحي العباد لا يجتمعون مع امرأة في مصعد واحد ، وينتظر عودة المصعد أو يصعد الدرج ماشياً لأن المؤمن عفيف ؛ إن الله كان عليكم رقيباً .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

ذكر الإمام الرازي أن حظ المؤمن من اسم الرقيب ، المقولة المعروفة « **تخلقوا بكمالات الله** » ، فَكَيف نتخلق بِهذا الاسم ؟ يقول : مراقبة العبد لنفسه أساسها أن يعلم أن الله مطلع على نياته وقلبه ودخائل نفسه ، وأن يستحضر من مراقبة الله له أن الله تعالى معه دائماً ، ويراقبه في كل أحواله وحركاته وسكناته وقال : هذه المراقبة مفتاح كل خير ، لأن العبد إذا أيقن أن الحق مراقِب لأفعاله ، مبصر لأحواله ، وسامع لأقواله ، مطلع على ضمائره وخفاياه ، خاف عقابه في كل حال ، وهابه في كل مجال ،عِلماً منه بأن الرقيب قريب ، وهو الشاهد الذي لا يغيب ، ولذلك قال أحد العلماء : إن الرقيب الذي هو من الأسرار قريب ، وعند الاضطرار مجيب .

وقال بعضهم : الرقيب : هو المُطلّع على الضمائر ، والشاهد على السرائر ، والرقيب يعلم ويرى ، ولا يخفى عليه السر والنجوى .

وقال بعضهم : الرقيب : الحاضر الذي لا يغيب ، بل رقابتُه قديمة مستمرة . ولهذا قيل : الرقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات وتتقدم رؤيته جميع المكونات .

قال أحد العلماء حينما عقد بحثاً حول مقام المراقبة قال : إن أدب المؤمن مع الله الرقيب ؛ أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء ، ويعلم أنّ نفسه عدوة له ، وكذلك الشيطان اللعين عدو متربص ، وهما ينتهِزان منه كل فُرصة حتى يحملاه على الغفلة والمخالفة ؛

وعليه أن يأخذ حذره منهما ، ويسد عليهما المنافذ والمداخل ، حتى لا يقع في فخٍّ واحدٍ منهما ، هذا هو أدب المؤمن مع الله في اسم الرقيب .

ومن أدب المؤمن في هذا المجال أن يراقب نفسه وحِسه وأن يرقب حتى أنفاسه ، ويجعل عمله خالصاً لِربه بِنيَّة طاهرة في أعماله ويراقب ربه في أخيه فلا يُظهر عَيْبه .

ويقول ابن عطاء الله السكندري عن اسم الرقيب : أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام وفي كل الأوقات .

وقال أبو حفص : إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لِنفسك وقلبك ولا يغرنَّك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

قال عبد الله بن المبارك لِرَجل : راقب الله تعالى فقال : كيف ذلك ؟ قال : كن أبداً كأنك ترى الله تعالى ، (**اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأنني أراك أبداً**) ، وبعضهم كان يدعو بِهذا الدعاء : إلهي أنت الرقيب لِحركات الأكوان ، العليم بِخطرات قلوب الإنس والجان ، أشرِقْ على قلبي بنور اسمك الرقيب ، حتى تتزكى نفسي فتَتَحلى بالتقريب ، وامنحني عيوناً تراقب نِعَمك الظاهرة ، وتلاحظ أسرارك الباهرة .

فَحَال المراقبة حال تام وارتقاء إلى الله ، إذا وصلت إليه أوْصلك إلى الجنة ، وسعِدت في الدنيا والآخرة ، لأن من لوازم هذا الحال الاستقامة على أمره ، والاستقامة على أمر الله سبب الجنة .

* * *